بعض من غسان

◘ بقلم: عدنان بدر ◘

حول بعض العوائق بيني وبين الكتابة عن غسان ، بشكل يمكن ان افي فيه هذا الموضوع حقه .. وتجعلني عاجزا عن التعبير بدقة وموضوعية عن رؤيتي له وكيفية نمو تلك الرؤية وتطوراتها . سيما وانني عايشت غسان : انسانا ورفيقا ومعلما لفترة طويلة وكثيفة .

وهذه العوائق ذات مصدرين : الاول خارجي ، حيث ان هذا الموضوع يتطلب التطرق الى حيثيات وتفاصيل تحول الظروف دون نشرها الان .. اما المصدر الثاني فهو ذاتي ، اذ ان الكتابة عن غسان ، شيء لما ينضج في نفسي بعد .. انني ما ازال في مرحلة الكتابة لغسان ، فاستشهاده لم يتأكد في لا شعوري حتى الان .. ما ازال افاجأ به عشرات المرات كل يوم .. ما ان اتغافل عنه لحظة حتى يسارع اشياؤه الكثيرة التي تحيط بي ، ليبلغني النبأ المفجع من جديد . انا وتلك الاشياء ، وغسان .. ما نزال شيئا واحدا متصلا ، بعضنا لما يغادر الحياة بعد ، وبعضنا الاخر لما يستقر في الموت . وفي حالة كهذه يتعذر علي انتزاع نفسي الى خارج الموضوع .

وعلى هذا فان كتابتي عن غسان الان ستكون مشدودة الى الانتقائية والذاتية بصورة لا تخلو معها من الفجوات ، على امل ان يتاح لي في ظروف اخرى دراسة وتسجيل يومياتي مع غسان الانسان والرفيق والمعلم .

● نقطة ضعف في شخصية غسان ●

كان في شخصية غسان نقطة ضعف ، لا ادري كم يعرفها الاخرون ، كما انني لا ادري كم تكون قد سببت لغسان من اشكالات في حياته .. وهذه النقطة هي ثقته المفرطة بالاخرين .. وكان غسان عندما اناقشه فيها، يحاول ان يردها الى هزيمة حزيران .. كان يقول :

الشك وصل قبل حزيران الى حدود الهلوسة ، ولكم اضاف الى عوامل التشرذ والتمزق في صفوف الحركة الوطنية ، وهذا امر لا بد وان يسقط مع الاشياء التي سقطت تحت ركام الهزيمة .. صار مطلوبا ان نتعامل مع بعضنا بانفتاح ، انها الخطوة الاولى على طريق خلق مناخ الحوار الديمقراطي الجدي الموصل الى تحالفات صلبة وحقيقية .

على اصالة هذا التبرير .. لم يكن يقنعني بانه مصدر تلك الثقة الكبيرة التي حوتها نفس غسان .. كنت احس ان تلك الثقة ليست شيئا مكتسبا في شخصيته ، بل هي من صلبها .. كانت الوجه الاخر لثقة غسان بنفسه وشعبه وثورته والتزامه ..

سلبيات تلك الثقة كانت تصيب غسان شخصيا وتخلق له اشكالات على المستوى الفردي ، يعانيها بصبر ، في حين ان ايجابياتها كانت تصب في مجرى الثورة ، قوى وطاقات جديدة ، عبر قنوات صنعها غسان من معاناته الشخصية ..

في مطلع عام ١٩٦٩ ، ويوم كانت الجبهة الشعبية تعاني مما جره عليها الانشقاق .. قال غسان : المهم الا يحملنا هذه الحالة بغض عن متابعة تحولنا الى حزب ماركسي لينيني . ويجب ان نعي نحن قبل الاخرين ان طريق التحول هي طريق طويلة وشاقة وتحتاج الى جهود وطاقات ما نزال لا نملكها ، علينا ان نضاعف تعلمنا لامتلاكها .. علينا ان نصبح التجربة التي ستستقطب جهود جميع الثوريين العرب .. فنحن بحاجة الى اي جهد ينضاف الى جهودنا في هذه الطريق ..

والزم غسان نفسه بشعار « تعالوا ايها الرفاق فميدان العمل مفتوح امامكم » ..

وفي ذلك الوقت بالذات ، يوم كان العمل الفدائي محاطا بهالات الاسطورة .. ويوم كان حتى بعض القادة فيه يكادون يضربون المواعيد للتحرير ، و « يرون » امكانات حرق مراحل لما تزل في حدود الاحتمال البعيد .. في ذلك الوقت كانت ثقة غسان غير المحدودة بشعبه وثورته والتزامه تتخذ بعدها الواقعي فيقول :

« نحن الجيل الذي يهيء لجيل الثورة .. ويخطيء من يظن اننا الثورة » .

● غسان التلميذ غسان المعلم ●

نعم كان غسان التلميذ والمعلم في ان واحد .. هذا شيء كنا نلمسه نحن الذين كنا تلاميذه في « الهدف » .. كان يعلمنا جميعا ويتعلمه من كل فرد منا .. من كل حادثة .. من كل تجربة ..

كان يستخلص الدروس من كل شيء .. وعملية الاستخلاص هذه كانت تتسرب الى داخلنا مع ذلك الحب الكبير الذي كان يدفعه علينا .. على كل من حوله .. وفي كل لحظة ..

في ذلك الموقع الذي قيض لنا ان نلتقي فيه .. اتيناه من طريقين مختلفين كليا .. اتاه غسان من الامل والثقة اتاه من جو « ام سعد » .. يوم سقط كل شيء فاعتبر غسان ذلك السقوط ازاحة لذلك « الكل شيء » من امام الشيء الحقيقي الذي هو الثورة الحقيقية .. هو « غصن الدالية » الذي بدا يابسا صباح الخامس او السادس او العاشر من حزيران ، يوم غرسته ام سعد في الارض ..

اما انا فاتيت « الموقع » من طريق اخرى .. اتيته من اليأس والشك .. اتيته وعلى ظهري اثقال اكثر من تجربة فاشلة ..

وفي ذلك « الموقع » اختلط الشك بالامل الى درجة الاتحاد .. ولا ادري كم يحق لي الان الاعتراف بانني ولفترة غير قصيرة ظللت اعرف حركة المقاومة والجبهة الشعبية بشكل خاص ، من خلال غسان الانسان والرفيق والمعلم .. وكنت من مواقع الشك اراقب تحول غسان ونضوجه الثوري ، توصلا الى امتحان امكانات تحول المقاومة والجبهة ونضوجهما الثوري ..

ولتعذرني غسان .. اذا اعترفت الان .. بما لم يكن غسان يبذل اي جهد لاخفائه .. بل على العكس كان يعتبر كشفه الطريق الوحيد لتلافيه .. وهو ان فكر غسان الثوري على اصالته وارتباطه اللامحدود بالارض والكادحين من الناس .. وعلى حدة ما في ذلك الفكر من ذكاء ، كان يمكنه من تشوف ما خلف الظواهر ، وما في داخلها من جدل .. على كل ذلك .. كان ذلك الفكر الثوري في حاجة الى المزيد من النضج .. وعمليه النضوج تلك ، كنت من خلال ترسبات شكي، اراقبها بهدوء ..

وكانت براعمها تتفتح يوما بعد يوم ، بسرعة فاقت تصوراتي الاولى ، حتى تلك التي كان يضفي عليها الحب والاعجاب الوانا زاهية ..

والى الف مثل ومثل على هذه الحقيقة اضاف غسان حتى بعد استشهاده المثل القاطع ..

قرأت ما كان قد كتبه « لشؤون فلسطينية » حول قضية « ابو حميدو » .. وفي ذلك المقال وجدت نفسي ، ويا لشدة الاسف للمرة الاخيرة .. امام غسان المتكامل النضج .. امام غسان حيث تتكشف ملامحه، عن طاقات قيادية ، مجمعون كلنا على مدى حاجة هذه الثورة لمثلها ..

نعم .. في ذلك المقال رأيتني امام غسان وقد تلاقى وعيه الثوري القادر على استيعاب الظواهر والنفاذ الى داخلها والتبصر في تناقضاتها الداخلية ، مع حسه الثوري الاصيل الذي كان قد فجر في قدرته الفنية الخلاقة « رواية » « ام سعد » .. التي اصاب رفاقنا في احد مواقع التنظيم ، عندما اقترحوا بعد صدورها بوقت قصير ، ان تضاف الى المواد الدراسية في برنامجهم الثقافي .

● غسان المجهول ●

كان غسان معروفا جدا .. فمن لا يعرفه شخصا .. كان يعرفه اديبا .. او صحفيا او مناضلا في حركة المقاومة .. ومع ذلك كان هنالك حيز كبير حتى في ادب غسان ونضاله ، مجهولا بالنسبة للكثيرين .. ومن المفارقات ان ذلك الحيز المجهول كان اهم من كل ما هو معروف عن غسان ..

فالدور الذي قام به غسان داخل الجبهة ولا سيما في اشد الفترات التي مرت بها الجبهة خطورة ، كان اهم بكثير مما هو معروف ان غسان كان يقوم به في الجبهة ..

وبنفس الطريقة .. كان احمل بالف مرة من ادب غسان المكتوب .. ذلك الادب غير المكتوب الذي كان يعيش في احاديثه العادية مع رفاقه واصدقائه وجميع الذين عرفوه عن كثب ..

ومن المؤسف ان هذا المجهول قد انحل في داخلنا دون ان تكون لدينا القدرة على استعادته وتسجيله ونشره .. ان في داخل كل منا شيئا من غسان تضيق عنه الكلمات ■

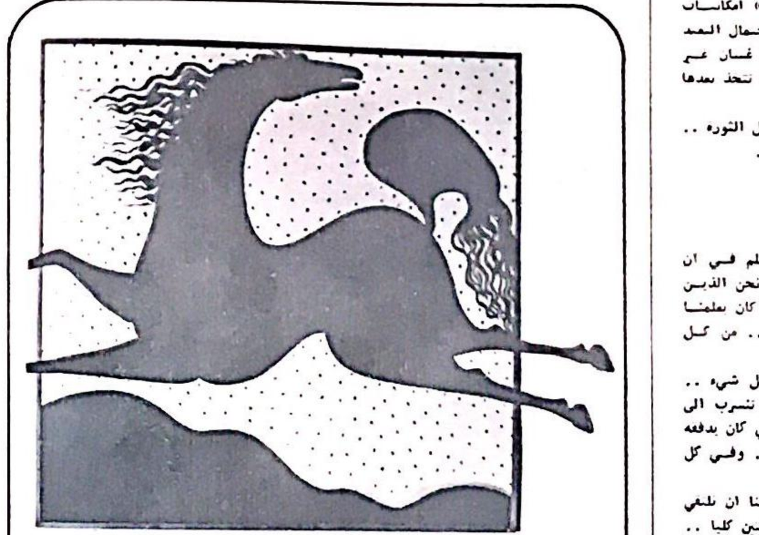

عائد الى حيفا ....

رفيق شرف

١١/٨/٧٢

غدا اذا ما زحزحت اكفنا
سكونه
ستهركون
ما الذي ابقى لنا مهاجر ، صموت
ستدركون
ما الذي خبا تحت جفنه السكوت

وكيف ان مسربا في الليل قد اضاءه تابوت
وكيف ان بعضنا يولد مذ يموت

●

لا تشعلي الشموع ان بيته مضاء
لا تغسلي جراحه
فتلك كانت ساحه ، وتلك كانت
ارضه
وتلك كانت بيته المزهو بالدماء
لا تلمسي
جفونه
نخاف ان يوهنها البكاء

مقطعان من قصيدة بلند الحيدري عن الشهيد غسان

رسالة من آني الى غسان بعد أربعين يوما

الى غسان ، زوجي ومعلمي .. « ان تاريخ شعب ليس من صنع انسان واحد بل هو تصميم على الصمود وراء كفاح الجماهير المستمر لاجل التغلب على كل اضطهاد وطني وطبقي » .

هذه كلمات لك ، قلتها يوما . واعتقد انك على صواب ، ولكن اشخاصا امثالك عظماء ومخلصين ، هم مثال للشعب المناضل . لقد اثبت للشعب الفلسطيني بانه يقاتل معركة عادلة ، والان بمماتك تشجع الشعب على مواصلة النضال .

لقد جئت لبنان منذ اكثر من عشر سنوات « لاكتشف » القضية الفلسطينية ووجدت فلسطين فيك – الارض والشعب – وبزواجنا أصبحت انا الاخرى جزءا من فلسطين ، وأما لطفلين فلسطينيين – فايز وليلى .

لقد وهبت نفسك لغسان منذ اللحظة الاولى للقائنا . لقد كنت دائما مخلصا – حتى عندما سألة معروفة . كنت قادرا على ان تشرح بعبارات بسيطة اكثر الافكار السياسية صعوبة. لهذا كان الناس يستمعون اليك ، يقراون كتبك ومقالاتك ، وسيظلوا يفعلون .

لهذا خشي منك العدو . لهذا كان عليه ان يدمرك . ولكنه لم ينجح . ان احدا مهما كان فاشيا ، لا يستطيع ان يحطم انسانا عظيما مزروع الجذور في شعبه ، عبر النضال الثوري ستبقى دائما غسان ، شهيدا ، رمزا ، شعلة تحرير وثورة ، للشعب الفلسطيني وللشعوب الاسيوية والافريقية .

يبدو لنا ، انا ، وفايز وليلى ، بانك انطلقت في رحلة طويلة مع لميس ، التي احببت كثيرا ، وقد الهمتك كتابة قصص لها منذ لحظة ولادتها . لميس عزيزتنا ، الفتاة الناعمة الخلوق ، الصبورة والذكية ، التي احبها الجميع . لقد احبت مثلك ، الانسان والحياة – لقد احبت ابويها واشعارها كثيرا ، وكان حبها واعجابها بك صادقا وعميقا . وبما انه كان علي ان ابقى في البيت لرعاية ليلى وفايز تطوعت لميس العزيزة ، لمرافقتك في رحلتك غير

طلبت ان تزوج فانك « وضعت كافة الاوراق على الطاولة » – لا وطن ، ولا مال ولا جواز سفر ، اضافة الى مرض خطر . كل هذا لم يشكل بالنسبة لي انه عقبة – كنت انت غسان ، الذي احببته واعجبت به . وبرغم « الوعود السيئة » العديدة ، فقد منحتني حوالي احدى عشر عاما – اسعد فترة في حياتي واهمها – والتي سأستطيع منها استلهام القوة للسنوات الطويلة الصعبة القادمة .

بالنسبة لي ، لفايز وليلى ، كنت اكثر من زوج واب رائع . كنت معلما ورفيقا ايضا . في ايام الاحاد ، كنت تمنح نفسك كليا للاثنينا لقد احببت بيتك والعمل في الحديقة ومسحة التراب في راحتيك . احببت اللعب مع الاطفال والقطط ، وشرب الكثير من القهوة بينما انت تترجم لي قصصك او مقالة كتبتها ، او تحدث الي عن موضوع ما . لقد كنت تجد لذة في العمل – الكتابة ، الرسم ، العمل في الحديقة.

كانت يداك وفكرك في حالة خلق وعطاء دائم – للشعب .

كانت قدرتك العظيمة في اقناع الزائرين الاجانب بنضال الشعب الفلسطيني العادل الموفقة ، التي بدات صباح السبت في ٨ تموز ، عائدا الى فلسطين حبيبتك .

كانت مسيرة تشييعك ولميس ، وعد الشعب بمواصلة النضال الثوري وتصعيده . انني فخورة بغير حدود كوني زوجتك – لم اكن اريد ان ابكي ، بل ان اواصل نضالك والسير مع عائلتنا ، ام سعد وكل الناس الرائعين الاقوياء ، من المخيمات وغيرها . لقد شعرت بدرجة من القوة بحيث انني ناديت على فايز ليشاركنا . ولم يشك احد شاهد خطواته الشامخة بانه ابن غسان ، وبانه مع حبيبتنا ليلى والاطفال الفلسطينيين ، سيحملون مشعلك ويواصلون النضال من اجل الثورة الفلسطينية.

يوما ما سيصبح فلسطين ذلك العالم الذي اردت ان تعطيه « لميس وفايز وليلى ، وكل الاطفال الذين لا عالم لهم » ..

لقد تواريت عن انظارنا ، ولكن ليس عن قلوبنا وفكرنا – فانت بصورة ما ، تبدو على مقربة منا . حبنا العميق الصادق لكما سيدوم ابدا .. ■

ودمت الى
آني

كلمات من الرفيق بسام أبو شريف

أخي غسان

كنت آتٍ إليك ..
تعطلت الرحلة .. هذه المرة ...
تراب الطريق مازال محمولاً في راحتيّ ..
لا أزال عاجزاً عن الكتابة ...
فاعذرني ..
ودعنا نتابع حديثنا الصامت الذي لا يحتاج إلى كتابة ..
غداً عندما أغادر المستشفى .. سأكتب لك ... سأخبرك عن كل شيء ...
أخوك
بسام

الشهيد غسان كنفاني

عندما كنت صغيرا كان ابي يأخذني الى « المحرر » ويجلسني على كرسيه ويقول لي ان ارسم بعض الرسوم . وعندما انتقل الى « الانوار » كان يأخذني ايضا .. وانتقل الى مجلة « الهدف » يأخذني انا واختي الصغيرة ليلى ويعرفنا على كل رفاقه في المجلة . كان ابي رجلا جيدا يشتري لي كل ما اطلبه . احب ابي كثيرا جدا حتى الان بعد ان مات ، كان العربي صعبا علي فعلمني الكثير من كل ما كنت اجهله وهكذا اصبحت اقدر ان اقرأ كل مقال عنه . احببت ان يكون لي ابا كهذا لانه كان ذكيا جدا ويحبه جميع الناس .

عندما كنا في الدانمرك كنت وليلى نفتقده كثيرا ونقول لامي ان ترجعنا اليه . بعد ان رجعنا من الدانمرك كنا نراه يشتغل كل يوم حتى ايام الاحاد كان يشتغل في الحديقة ويغرس الازهار بيديه الناعمتين في التراب ،

وكنا في بعض المرات نشتغل معا وعندما نعرق نقلع قمصاننا ، وبعد الشغل كان يعلمني على التصويب في البندقية الصغيرة التي اشتراها لي ، كنت دائما احب ان ارى برامج التلفزيون معه . عندما اكبر ساكون مثل ابي واحارب لكي اعود الى فلسطين بلد ابي البلد الذي كان وام سعد يخبرني عنه .

من الان وصاعدا سأساعد امي واختي كي لا يفتقداه كثيرا ولكننا لن ننساه ولميس التي ماتت معه والتي كنا نحن وابي نحبها كثيرا كانت فتاة طيبة لا تغضب ■

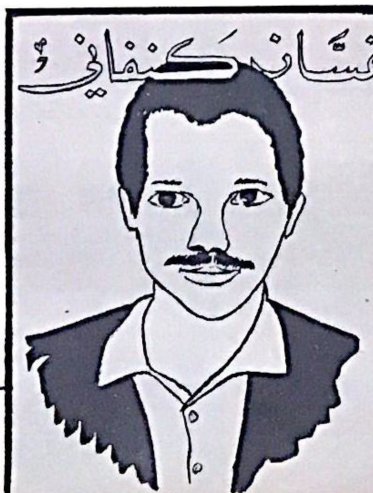

بقلم وريشة: فايز غسان كنفاني